﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون: 108]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ترقُّبُ الإجابةِ على طلب الرّحمة

لمّا طلب أصحابُ النّارِ الإخراجَ منها بشرط عدمِ العَودِ إلى ضلالهم، وإلّا فإنّهم ظالمون؛ انتظروا الإجابةَ من الله تعالى؛ فجاءَهمُ الجوابُ: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، فهو جوابٌ على سؤال.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱخۡسَـُٔواْ﴾: الخَسْءُ هو الانقباض عن مهانة[1]؛ يُقال: خَسِأ البصرُ؛ أيْ: "كَلَّ وأعيا"[2]، وأُطْلِق على الطّرد والاندحار؛ يُقال: "خَسَأْتُ الكلبَ خَسْأً: طَرَدتُه"[3]، والمعنى في الآية الكريمة: اسكُتوا وانزجِروا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أجابَ اللهُ ﷻ طلبَ أصحابِ النّار بالإخراج منها، مع ما شرطوا في ذلك على أنفسهم؛ زاجرًا مُيَئِّسًا: اسكتوا وانزجِروا انزجارَ الكِلابِ، ولا تخاطبوني بشيءٍ في النّار[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلّة فصلِ صدرِ جملة ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾ عمّا سبقها:

الجوابُ على سؤالٍ مُقدّر فماذا أجابَهم؟

فُصل صدرُ الجملة ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾ عمّا سبقها منَ الجمل؛ لتمام الاتّصال بينهما؛ فهي من باب المُحاورة التي تحمل تقابلًا في الأقوال بينَ الأطراف، كعادة القرآن في مُحاوراته[5]، وهي أقربُ إلى جوابٍ عن سُؤالٍ مُقدّرٍ: (فماذا أجابَهم؟).

(1) الرّاغب، المُفردات: (خسئ).
(2) الخليل، العين: (خسأ).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (خسأ).
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 66.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 131.

بلاغةُ الأمر في ﴿ٱخۡسَـُٔواْ﴾:

التزموا الصّمتَ وكونوا على عَجزٍ من الكلام ويأسٍ من الإجابة

جاء الجوابُ في الآية ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾ بأسلوب الأمر؛ وهو أمرٌ يقتضي الالتزامَ؛ لأنّه من ربّ العِزّة مالكِ يومِ الدّين، كما يحمل مع الأمر دلالةَ الإقناط والتّيئيس، فلستُم في محلّ الرّجاءِ والمُطالبة؛ بل أنتُم لستُم أهلًا للطّلب؛ فاسكتوا وانزجروا[1]، ويمكن حملُه على دلالةٍ أُخرى قريبةٍ إلى نَظْم الآية؛ وهو أمرُ (كن) الإلهيّ؛ أيْ: كونوا ساكتين غير قادرين على التّكلُّم، على غرار قول الحَقّ ﷻ: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝٦٥﴾ [البقرة: 65][2].

سِرُّ اختيارِ لفظِ ﴿ٱخۡسَـُٔواْ﴾ مادّةً وصيغةً:

ضرورةُ التزامِ الصّمتِ مع إبعادٍ وهَوانٍ وذُلّ

اختار النَّظْمُ الكريم لفظَ ﴿ٱخۡسَـُٔواْ﴾ في قوله: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، وفي ذلك سِرٌّ بديع؛ إذ في اللّفظ دلالةٌ على معنى الانقباض، فيكون المعنى: توقّفوا عن الخطاب، كما يحمل معنى الذُّلِّ والمهانة؛ أيْ: ذُلّوا في العذاب بهوانٍ[3]، ويحمل معنى الإبعاد؛ أي: ابعُدوا[4]؛ فجمع هذا اللّفظُ بينَ الصّمت وحالِ الصّمتِ - وهو الهوانُ والذُّلُّ - وحالِ الطّرْدِ، وتدلّ صيغة ﴿ٱخۡسَـُٔواْ﴾ على الأمر يقتضي اللّزومَ، وقد جاء منَ المَلِكِ إلى عبيده المُذنبين، ممّا يجعل الصّمتَ أمرًا لازمَ التّطبيق، وكلُّ هذه الدّلالات تزيد أصحابَ النّارِ هوانًا على هوانٍ، وتُظهِر عِظَمَ جُرمِهم الذي استحقّوا لأجله هذا الموقفَ الشّديد.

غرضُ عطفِ جملة ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، وصيغة المضارع المنفي:

للدّلالة على أنّهم مأمورون بالخَرَس والصّمت وعدمِ التّكلّم الآن ولاحقًا

عُطفت جملة ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ على جملة ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾، وهو عطف نهي على أمرٍ، والغرضُ من ذلك هو تأكيدُ الجملة الأولى[5]؛

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 266.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 232.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 297، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 96.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5123.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 232.

إذ ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ في معنى ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾، وجاءت الواو لتُبالغ في طلب تحقيق النّهي؛ لأنّها تُشعر بالاستقلال؛ لما فيها من معنى المغايرة الذي لا يَبْرحُها، وهذا غايةُ الغضبِ عليهم، وغايةُ تعنيفهم.

وجاءت الجملة بصيغة المضارع المنفيّ؛ لتَدُلَّ على أنّهم مأمورون بعدمِ التّكلّم الآن ولاحقًا، إضافةً إلى توزيع المعنى فيُحمَل الخَسْء على الهوان والطّرد، ويُحمَل عدمُ التّكلّم على الخَرس.

سِرّ تقديمِ الإخساء على عدم التّكليم:

الـخـاسـرون في جـهـنّـم ليسوا أهـلًا للخطاب ولا لـلـكـلام في حضرة المولى

لَمَّا كان من الخطوط العامّة في السّياق توبيخُهم وزَجرُهم وتعنيفُهم وما جرى في هذا الطّريق من المعنى؛ كان ذِكْرُ الأمرِ بالخَسْء من قبل ذِكْر النّهي عن الكلام هو الأبلغُ في تقرير ذلك؛ لأنّ في الأمر بالخَسْء نهيًا ضمنيًّا عن أن يتكلّموا، ولما جاء النّهيُ عنه صراحةً؛ كان ذلك غايةَ الغضبِ عليهم، وثَمَّةَ معنًى آخَر وهو إظهار معنى الإبعاد والطّرد والإهانة؛ فليس المَقصِد هو نهيَكُم عن الكلام؛ ولكن أنتُم لستُم أهلًا للتّكلُّم في حضرة المولى.

سِرُّ اختيارِ ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ دونَ (ولا تَكَلَّموا):

الـنّـهـيُ عـنِ التّكلّم معَ المَلَك الدّيّان بأيّ كلام

أوثرَ التّعبير بـ ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ دونَ (ولا تَكَلّموا) أو (ولا تَتَكلّموا)؛ ولعلّ السِّرّ في ذلك هو أنّ المقصود بالمَنع هو كلامُهم معَ المولى ﷻ اعتذارًا والتماسًا[1]؛ فالله ﷻ نهى أن يُكلّموه؛ لا أن يتكلّموا فيما بينَهم.

بلاغةُ حَذفِ المُتكلَّم به:

النّهيُ عن أصل الكلام؛ بل عن أيّ كلامٍ

حُذِفَ متعلّق الكلام في النّهي: ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾؛ حتّى يتّجِه النّهيُ إلى أيّ كلام مع الله كان، كالإخراج منَ النّار[2]، أو التّخفيف منَ العذاب؛ بل يَتّجِه النّهيُ إلى كلّ كلام يستغيثون به اللّهَ تعالى[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5123.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 204، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 152.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 96.

بلاغة المَجاز في النّهي عن التّكلّم:

النّـهـيُ عـن الالـتِـمـاس والسّؤال

نهى اللّهُ تعالى في قوله: ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ عن الكلام، والسّؤال: هل الغرضُ من ذلك هو الكلام؟ أو أنّ النّهي يحمل غرضًا آخر؟ والجواب: أنّ النّهيَ في الآية هو من باب منعِ الشّيء وإرادةِ المَنعِ من لازمه؛ مجازًا مُرسلًا؛ فلم تمنع من التّكلّم بقَدْر ما نهت عن لازمه؛ أيْ: لا تسألوا ولا تُطالِبوا بشيء[1]، فالكفّ عنِ الكلام هو كَفٌّ عن مضمونه، وهو سؤالُ الإخراج، وأهلُ النّار ليسوا في موضع الرّجاء ولا المطالبةِ بشيء.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5123.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»